عزيز السيد جاسم

البعث...
حزب الثورة العربية

تونس - 1987

دراسات عقائدية

منشورات



البعث... حزب الثورة العربية

عزيز السيد جاسم
بغداد 1973

موقع حزب البعث العربي الاشتراكي من الثورة القومية

يمتاز النضال القومي العربي ، من بين نضالات شعوب العالم الثالث ، انه نضال يلبي مهمات عديدة ، فالامة العربية هي امة مستعمَرة اولا . ومجزأة ثانيا . وواقعة تحت وطأة اقسى احتلال عنصري ثالثا . ومسحوقة تحت قوة ضغط الاستغلال الطبقي الداخلي رابعا . والنضال ينطلق من واقع المجابهة الثورية الحاسمة ضد كل الظروف التي ساهم في تشكيلها الاستعمار والرجعية العالمية من جهة والرجعية المحلية بطبقاتها العربية من جهة اخرى .

ولما كان النضال السياسي ، الذي يبلور كل اشكال النضال الاخرى ويرفعها نضالا واقعيا . فهو يبتدىء من ارضية عربية ذات سمات محددة . اي انه يفرز الخيوط والتشعبات العديدة فرزا دقيقا عمليا حتى تكون القضية الثورية ، قضية واحدة متميزة ، هي قضية النضال القومي اليساري لا يتشبث بأبعاد وهمية او بمقولات منقولة ميكانيكيا . انه نضال تحرري واسع يمتلك في

جوهره بعد الثورة الاجتماعية الاصيل . وبعد ان ادت استقطابات العصر من الجهتين ، الاستقطاب التحرري ، الثوري، الاشتراكي، والاستقطاب الرأسمالي الاحتكاري ، العنصري الرجعي ، الى جميع المسائل وتمركز صلاتها ، فان القضية الثورية ، هي بالحتم وحسب قانونها نفسه ايضا قد اصبحت موضوعية في توحيد نفسها ، شروطها وموادها ، وجبهاتها وطرق سيرها . فهي ليست قضية ذات جانب واحد ، ولا تجيب عن مسألة اجتماعية او اقتصادية فقط ، بل هي قضية تشد في يدها كل الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والمسلكية شدا ثوريا حيويا. وهي بالتالي تطرح نفسها في عمومية الثورة العربية لا في خصوصيات التجزئة والنظرة الاحادية .

وعندما كانت القضية الثورية ، قضية جزئية ، مبتورة عن الكثير من أصولها الواقعية ، فانها استعارت الاسم واجهضت المحتوى . وبالتالي انخرطت في هامشية التاريخ السياسي ، بمعنى انها لم تفلح في ان تكون تاريخيا حقيقيا .

تياران اساسيان

وضمنا ، نستطيع ادراك احادية بعد القضية الثورية القومية في تيارين اساسيين . شكلا بداية القضية الثورية وفشلها الطارىء ايضا . هذان التياران هما اولا التيار السياسي المنصرف لتقديم حاول للقضية الاجتماعية ، بمعزل عن الاطار القومي. والى حد كبير لعب اليسار اللاقومي ، التقليدي على النطاق العربي ممارسة كبيرة في تعزيز هذا التيار وملئه .

وقد انطلق هذا اليسار من المسلمة الماركسية الاولى ، مسلمة الصراع الطبقي ، آخذا اياها بوضعها الاسمي ، دون اي استلهام للواقع المتجسد ولا للمسلمات الماركسية الاخرى .

لقد كان الفصل بين (الامة) وبين (الطبقة أو الطبقات) .

واعلاء شأن الطبقة مع نسيان التأسيسات الاجتماعية الكبرى ، متأتيا من جهل كبير لقوانين الحركة الاجتماعية وشروط التقدم التاريخي . وبقدر ما كان التفات (ماركس) و (انجلز) صحيحا الى عدم تأليه العامل الاقتصادي واغفال العوامل الاخرى ، فقد كان من المهم تدارك الخطأ في التحليل والعمل ، بابراز اسم الطبقة والصراع الطبقي مع قطع ذلك عن ديالكتيك التاريخ والواقع الاجتماعي القومي .

فالامة لم تولد عبثا ، ولم تأت من فراغ . بل هي مجموعة كبيرة ثابتة من البشر توحدهم روابط اساسية متينه متقررة في سياق التاريخ . ونشوء الطبقات الاجتماعية قاد الى تكون الامم والدول والتأسيسات الكبيرة الاخرى ، والتكون التاريخي للامم تحت ظل اي شروط وفي أية حقبة زمنية لا يعني ان الامة تنساق في تطورها الى حتمية خارج ارادة الانسان، ان تكون الامة ضمن جدلية الصراعات الطبقية يعني بالاصل والاساس ايضا دور الانسان في خلق صورة امته . والفعالية السياسية للطبقات الاجتماعية ، تلعب دورها ، حسب نوعية وجدية هذه الفعالية لكل طبقة او عدة طبقات . وهذا ما فات منظري اليسار الشيوعي لفترة طويلة .

فالتعريف التقليدي للامة ، الذي قاد الى التصور بأن الامة هي من صنع البورجوازية ، قد اوقع في خطأ الغاء معنى (الامة) والتخوف من (القومية) وبات الحديث عن (الامة) نوعا من الشبهة . علما بأن الفكر الماركسي قد أكد على مسائل عديدة تنقض الموقف اليساري التقليدي. فقد أكد على دور البورجوازية، التقدمي ، وأكد على ضرورة الاستفادة من العلم والحضارة في العهد البورجوازي ، وتحويل كل ما هو من صنع بورجوازي الى مصلحة اشتراكية .

وبذلك فالمنطلق اليساري التقليدي مدان من فمه ، ومن اصول تقليدية في الماركسية ايضا . ان الواقع القائم ، واقع

وجود الامم ، والامة العربية بالذات ، لا يعني ترك الحبل على الغارب ، او اعطاء مجد للبورجوازية لا تستحقه هو مجد خلق الامة . فالامة وجدت قبل ان توجد البورجوازية في التاريخ العربي ، وذكر اسم (الامة) في القرآن لم يكن صدفة او امرا لا معنى له . والماركسية نفسها تفسر الظاهرة على اساس كونها ظاهرة قائمة . وحتى التسمية كظاهرة لغة لم تولد الا في الواقع القائم وانعكاسا وتعبيرا عن مداخلاته العلاقية .

ولكن هجر اليسار التقليدي لكل صلة بالامة وتخليه عن المساهمة في تعيين مستقبل جديد لهذه الامة ، ادى الى زيادة حجم الفعالية البورجوازية ، وانتصارها ايضا .

ان اليسار الشيوعي في النطاق العربي ، وفي مرحلة تاريخية محددة هي مرحلة سنيه الاوائل ، لم يربط بين الصراع الطبقي وبين الامة ، ولم يضع للصراع الطبقي اطاره الموضوعي ، الاجتماعي والسياسي القوميين . بل وقع في خطأ القفز فوق الحقيقة القومية بالانتقال والمواصلة بين الصراع الطبقي المحلي وبين الاممية ، مما اسقطه في مثالية اعتمدت الميتافيزيقيا في التحليل والاستنتاج ولم تعتمد الواقع القائم . اذ ان الامة موجودة ، في حضور كبير ، تاريخي ، وعصري ، والعبور فوق ذلك بنكران وجود الامة ، هو عملية هروب من الممارسة الجدلية في تغيير الواقع .

كما ان اليسار التقليدي وقع في التباس آخر ، لا ماركسي ، هو تحديد معنى الصراع الطبقي تحديدا متيسرا ، واقعيا مبذولا ، وذلك باغفاله حقيقة تجسد الصراع الطبقي عالميا . كصراع بين الامم فرضته القوى الطبقية السائدة عند هذه الامم .

وعندما وقعت خدعة التقسيم كان اليسار التقليدي ، الشيوعي ، معدا لقبول هذه الخدعة التي كانت في جوهرها اضطهادا عنصريا وطبقيا شاذا . اضطهادا للامة العربية بقوة الفعل العنصري الفاشي واضطهادا للطبقات الكادحة المدعوم بالامبريالية

وارادتها ، باستيطان قوى احتلالية ناهبة ، ذات طبيعة بورجوازية اغتصابية بارزة .

لقد كان اليسار التقليدي هذا مشغولا جدا باعداد أجوبة لمسائل اجتماعية محلية ، ضمن منطق الثورة الوطنية المعادية للاستعمار . وعندما حصلت قضية خارجية ، من نمط الاحتلال الصهيوني الحاصل (والصهيونية في النطاق الواقعي لم تأت ضمن صراع الطبقات العربية) فقد كان الموقف ازاءها غير معقول، لانه لم توجد دراسة موضوعية واعية حول الصهيونية . لقد كانت الشروحات والمواقف السياسية منطلقة من عقلية الانغلاق على مفاهيم محددة (الصراع الطبقي داخل الوطن القطري فحسب) . أما أن الصراع الطبقي ، في ابعاده العالمية ، قد أخذ شكلا جديدا (على اعتبار ان الصهيونية ولدت داخل قانون الصراع الطبقي العالمي ، ولم تولد داخل مسيرة الصراع الطبقي المحلية) ، فهذا ما فات فهمه وتبين موضوعه .

اما التيار السياسي الثاني فهو التيار القومي الحماسي الذي فهم القومية شكلا دون مضمون ، وجرد الامة تجريدا بائسا عزل المسألة القومية عن الثورة الاجتماعية بالشكل الذي الغى فيه الثورة الاجتماعية وعبر عن أمة وهمية هي أمة كل (الناس العرب)، بورجوازيين ، وعمالا ، واقطاعيين ، وفلاحين .. الخ. وبذلك فقد كان التيار هذا غير مستكمل جوانبه الاصلية ، فأظهر القضية القومية وكأنها قضية بلا مجتمع وبلا قوانين وبلا صلات . وقد وقع هذا التيار في اخطاء مؤذية فهو لم يشخص من هم أعداء الامة ، في الداخل ومن الخارج . ومن هي قوى الامة الاجتماعية ذات المصلحة في تحرر الامة وذات القدرة على حماية هذا التحرر والاخذ به الى اهدافه القصوى . ولذلك فهو ــ أي التيار ــ لم يطرح اي برنامج اجتماعي نضالي . وسياسيا لم يفرق بين الاعداء الحقيقيين والحلفاء ، وقد انخرط في اتجاه محاربة الشيوعية ، ولم يميز بين الاشتراكية وبين الرأسمالية. وقد استفادت القوى

البورجوازية من عاطفية هذا التيار محاولة تنشيط اليمينية تنشيطا حادا ودفع اليمينية هذه في طريق فاشي .

حزب البعث العربي الاشتراكي والمرحلة الحاسمة

في أعقد مرحلة بالنسبة للنضال العربي ، وهي مرحلة البدء وتشكيل اوتاد ترتكز عليها الثورة العربية وتنطلق منها ، برز حزب البعث العربي الاشتراكي خارج التيارين اليساري اللاقومي ، والقومي غير اليساري طارحا نفسه حزبا لليسار القومي تحت شعار (الوحدة والحرية والاشتراكية) ومتقدما من وعيه للحقائق التاليـة :

أولا : ضرورة الوحدة القومية كرد ضد التجزئة والتمزق وكنتيجة حتمية بواسطتها تدخل الامة العربية التاريخ كرافد كبير للحضارة العالمية عطلت دوره التجزئة الكيانية وتبعثر القوى العربيـة .

ثانيا : شعبية هذه الوحدة القومية ، واعتبار الجماهير الكادحة هي أداة الثورة القومية وغايتها الاساسية .

ثالثا : احتواء هذه الوحدة القومية الشعبية على مضمونات الاشتراكية العلمية النابعة من ضرورة التصدي لاسباب التجزئة والاستغلال ، بازاحة الطبقات الظالمة والمستغلة وباعطاء الكادحين، المنتجين الحقيقيين ، دورهم الاساسي ، في ادارة شؤون المجتمع الديمقراطي الحر ، وفي اقامة صرح بناء اشتراكي .

رابعا : الرابطة الجدلية بين الوحدة والحرية والاشتراكية . فالنضال من أجل الوحدة القومية ، هو نضال جماهيري منظم واشتراكي . كما ان النضال من اجل الاشتراكية هو في اساسه نضال من اجل الوحدة العربية .

وقد جسد الحزب وعيه هذا تجسيدا عمليا وتحول الى اداة

ثورية عربية متمردة على الحدود القطرية مما يدلل على ثقته بصورة الامة الواحدة في المستقبل ، محولا نفسه الى نموذج مصغر للوحدة القومية الثورية . وهو بذلك الحزب الوحيد الذي شكل نفسه تنظيميا على اساس قومي ، في حين لم يخطر ببال اليسار التقليدي بناء تنظيمه بناءا قوميا . وادبيات حزب البعث منذ البدء لم تغفل القضايا الاجتماعية ، وحتى اليومية للجماهير العربية . بل ادخلتها في صلب برنامجات النضال ، غير ان طرح حزب البعث للوحدة القومية الشعبية ، كان طرحا متفردا يعبر عن الايمان الراسخ والمنطلق التاريخي الواعي . وبحق كان الحزب اول من اولى الوحدة اهتمامه الخاص في التنظير والعمل. ونضال الحزب من أجل الوحدة كان مستميتا ، بل كان النضال المصيري للحزب . وجهوده التاريخية في المساهمة في تشييد اركان تجربة الوحدة الرائدة. بين مصر وسوريا ، هي جهود تشهد على التصاق الحزب بشعار الوحدة التصاقا كليا متجاوزا الى حد كبير الحماسات والانفعالات القومية ، كالتصاق علمي ثوري فاعل .

وبعد قيام تجربة الوحدة ، كان حل الحزب لنفسه (وهو خطأ تاريخي) مثالا فذا على التضحية . لقد كان الحزب ينشد قيام الوحدة بكل ثمن ومنذ ان قامت اخذ الحزب ينشد بقاءها بأي ثمن ايضا حتى ولو بحل تنظيمه ، ضاربا بذلك مثلا صوفيا في الانشداد للوحدة ونكران الذات من اجلها . واذا كان الحزب يرصد باهتمام ومثابرة كل التحركات الثورية في أي قطر عربي ، فما ذلك الا للتعبير عن مهمته القومية وكفاح الحزب الدامي ، في المناسبات القومية ، وحينما يتعرض قطر عربي ما لاخطار الغزو الاستعماري ، لم يكن مقطوعا عن النضال الدائب من اجل حقوق الجماهير ومصالحها . كما ان النضال من اجل بعث حضاري للامة العربية بلغة جديدة هي لغة العصر والاشتراكية العلمية ، قد دلل على نوع رؤية الحزب وحدد عمله الثوري على أساس ادراك الواقع العربي لتغييره ، كواقع ذي ماض عريق ، وذي مكونات تاريخية

ضخمة من الممكن استنهاضها في طريق التعبئة الثورية للطاقات ، واماطة اللثام عن المعوقات وانهائها .

استجابة للضرورة القومية الثورية

وحيث يتحرك الحزب حسب مقتضيات التزاماته القومية الثورية ، فانه لا يقابل الحياة بمصطلحات مدرسية ثابتة ولا بأساليب عمل جامدة . وانتصارات الحزب السريعة في مختلف الميادين تبرهن على استجابة الحزب للضرورة القومية الثورية ، وقدرته على ان يكون اداة لهذه الضرورة تمثيلا وتجسيدا وتطويرا . كما ان استجابة الحزب للتعبير عن الضرورة ، وقدرته على ان يكون اداتها ، لم يجعلا الحزب واقفا في مجال العمل القومي الانعزالي . بل بادر الحزب الى فتح كل الجسور الحقيقية مع العصر والنهضة الاشتراكية والثورية . فقضية الثورة القومية هي جزء حيوي من قضية الثورة العالمية . ودخول الثورة العالمية في مرحلة جديدة يحمل حتما معه دخول الثورة القومية في مرحلة ذات أفق جديد . وحزب الثورة القومية ، حزب البعث العربي الاشتراكي في التحولات الجذرية التي انجزها بواسطة سلطته في القطر العراقي ، قد أكد عمق استيعابه للمراحل الجديدة وما تستلزمه من تطور في الرؤية والوسائل . ان تأصل الايديولوجية الثورية ، ايديولوجية الثورة القومية الاشتراكية العلمية ، ورصانة البناء التنظيمي بازدياد نسبة التركيب الطبقي الشغيلي في الحزب ، وجزالة الاسلوب الثوري ، بتعاطي العمل السياسي الثوري مع واقع قائم لا مع تخيلات مهزوزة ، والامكانية في توجيه الحدث واختيار فرص التفجير الثوري . كل ذلك يقدم حزب البعث العربي الاشتراكي للعالم كحزب للثورة القومية في تجربة جديدة غنية .

حزب البعث العربي الاشتراكي والثورة الواقعية

تطرح الاحزاب السياسية في العالم الكثير من البرامج والاقتراحات . وتخلق لنفسها صفات رئيسية أو ثانوية على ضوء ما تطرحه. غير ان المحك الحقيقي لهذه الصفات ، ولنوعية البرامج والاقتراحات يتمثل في مدى ما يخطو به أي حزب في طريق التطبيق والانجاز. ومتى ما اصبح التطبيق جسد الفكرة وواقعها، فان ذلك يقود بالضرورة الى تطور الفكر عبر تطور الواقع .

وقد عمدت احزاب كثيرة الى اصطياد شعارات وبرامج نظرية، اختارت لنفسها الصفة الشكلية ولم تمتلك الجدية الواقعية ولا السابقة التاريخية في حصولها . فهي من حيث الواقع غير مقترنة بدلائل عملية توضح صدق هذه الشعارات والبرامج وغايتها المتبلورة في حيز النشاط . وربما توجد احيانا سابقة تاريخية بسيطة او محددة تبين بعض الاقتراحات بين بعض الشعارات والبرامج وبين التحقق العملي . ولكن هذه السابقة لا تأخذ استمراريتها اليومية والمستقبلية . بل تنتهي كسابقة وتبتدىء انقطاعات جديدة يكون فيها الشعار مجرد شعار بتشبث باحقية شكلية . او بنزوع عملي سابق .

واحيانا يكون اطلاق الشعارات والبرامج . محاولة لامتصاص القيمة الفعلية الحيوية للشعارات ورميها كأغلفة . وقوة الحركة الثورية المتمثلة في ممارستها الاخاذة وفي قوة شعاراتها وصدقها، دفعت الاحزاب التقليدية والرجعية الى التمويه . وذلك بمجاراة الحركة الثورية في شعاراتها ، او بالمزايدة في رفع الشعارات ، تغطية لبدائيتها المتضمنة تخلفا كبيرا عن برامج الثورة .

والاحزاب البورجوازية تكون غالبا جدية في طرح شعاراتها الخاصة وهي بذلك تعكس عمليتها التجارية في تنفيذ الشعارات وتحويلها الى قوة مادية لها ويظل هذا مقياسا عاما بالنسبة لجميع الاحزاب البورجوازية وعندما تكون الاحزاب البورجوازية وطنية فانها لا تتنكر لقانونها الاساسي ولكنها في نفس الوقت تستجيب بعض الشيء الى بعض نداءات الحركة الشعبية ، استجابة محدودة ، مترددة ، وتضليلية عند التحليل الاخير .

وفي الواقع العربي، من السهل رصد طبيعة كثير من الاحزاب في تتبع العلاقة بين (الشعار) وبين ـ الفعل ـ لان هذه العلاقة هي مبتدأ الاكتشاف . اكتشاف ايديولوجية الحزب ومهماته الطبقية والسياسية وموقعه ، وتأثيرات مستقبلة ، وبداية الثورة العربية ، في ارضية العلاقات الاجتماعية المتمردة على الاوضاع والظروف والقوى الفاسدة ، لم يعن ان هذه البداية وجدت تماما احزابها الحقيقية الى الحد الذي يمكننا فيه القول ان بداية الثورة العربية سبقت نشأة الاحزاب الثورية .

كما ان نشأة الاحزاب الثورية لم تكن كاملة ، كأحزاب ثورية بالمصطلح العلمي . اذ ان من الضروري جدا التفريق بين الاحزاب الثورية والاحزاب التقدمية .

الاحزاب الثورية والاحزاب التقدمية

ان عدم تبلور نشوء الاحزاب الثورية ايضا لا يعني ان الاحزاب

الموجودة ـ في خط الثورة العربية ـ هي احزاب تقدمية اطلاقا ، لان وجود احزاب تقدمية محدودة ، او وجود اشخاص تقدميين قادة ، او وجود تجمعات تقدمية مستقلة ، او داخل احزاب ، لا يمكن ادراكه الا اذا توصلنا الى تفريق بين الفكر الثوري والفكر التقدمي . وبين الممارسة الثورية والممارسة التقدمية وضرورة هذا التفريق تستثار بقوة في مرحلة تداخل المصطلحات والمفاهيم والاقيسة ، وفي مرحلة حاسمة ، تكون الثورة العربية فيها احوج ما تكون الى المصطلحات الثورية والمفاهيم او الاقيسة الثورية .

ان الفكر الثوري هو فكر تقدمي ، ولكن الفكر التقدمي ليس شرطا ، ان يكون ثوريا . ان شرطه الاول في ان يتواصل كفكر تقدمي ، ثوري ايضا كامن في الواقع ، في الممارسة واستحصال التطبيقات المرافقة للفكر والمجسدة له .

ان ممارسة الثوري هي فعالية دائمة ، يكون فيها الثوري مستنفرا قواه استنفارا كليا بحيث لا يوجد مفك او فاصل بين الفكر وبين العمل . الفكر عنده يقود العمل ، والعمل يولد الافكار الثورية الخلاقة . وفيما اذا حصل الانقطاع عن الفكر والممارسة وذلك بتعطيل امكانيات الشخص او الحزب عمليا ، فان الثورية تتوقف لتحل محلها تقدمية الرأي .

وقد تكون للتقدمي ممارسات معينة ، لكنها ممارسات محدودة ، فكريا وعمليا ايضا. اي ممارسات لم تصل الى الدرجة التي ينبغي ان تكون درجة الانخراط الكلي في مجرى الثورة ، في دفعها الى غاياتها القريبة والبعيدة .

والاحزاب الوطنية في مناضلتها من اجل ان تكون ثورية لا بد ان تتوفر لها الشروط الاساسية التي تؤهلها للعمل كأدوات للثورة . وقد يكون حزب وطني ما ، غير تقدمي او يتحول الى تقدمي ، كحزب ديمقراطي بورجوازي .. اما ان يكون حزبا ثوريا فلا بد ان يعي مستلزمات الثورة. من هي قواها البشرية الصانعة؟ من هي ادواتها التمثيلية ؟ من اية ارضية تتقدم ؟.. وعبر اي

انجاه تمضي ؟ وما هي غاياتها المرحلية والقصوى .. الخ . وبذلك فالحزب الثوري بالنسبة لواقعنا العربي يجب ان يكون حزبا قوميا ، في منطلقاته وفي توجيهه وفي بنائه . حزبا له نظريته الثورية المرشدة في العمل ، وعلاقاته الثورية مع قوى الثورة في العالم ، على صعيد الفكر والتجربة . وله اجراءاته التطبيقية التي تعطي للحزب معناه الحقيقي .

وقد ظهر حزب البعث العربي الاشتراكي في الميدان منطلقا من ربطه الديالكتيكي بين المسألة القومية ، والقضية الاشتراكية ، محولا هذا الربط الى نضال يترسم خطاه بالتوافق مع مطارحات الحزب المبدئية .

الوحدة عند الحزب

اول ما يتبادر الى الذهن في الحديث عن الحزب او عن الوحدة العربية ، الصلة المتميزة بين الوحدة والحزب ، فحزب البعث العربي الاشتراكي طرح عن الوحدة القومية في فترة الاربعينات الطرح العلمي . وبذلك اوجد لمفهوم ـالوحدة القوميةـ معناه الآخر ، الاشتراكي العلمي ، المتميز عن مفهوم الوحدة القومية المطروح قبل ثورة اوكتوبر الاشتراكية . فقبل هذه الثورة ، ساد الى حد كبير المفهوم البورجوازي عن الامة وعن الوحدة القومية . حيث اخذت الوحدة طابعا شوفينيا عدائي العلاقة مع بعض الامم ومتواطئا في وحدة الروح العدائية مع قيادات شوفينية لامم اخرى ايضا .

ان امتداد النزعة البسماركية ، والبونابرتية ، قد وجد ظهيره وأليفه في النزعة البورجوازية في تحويل الامة الى حظيرة خاصة لها ، استملاكا وتصرفا . وكذلك في تحويلها الى مستودع بارود لتوجيه الضربات الحارقة ضد الشعوب المجاورة . فالبورجوازية اذ تفرض سيادتها على جماهير الامة ، تبادر من

الجانب الآخر الى محاولة فرض سيادتها على أمم اخرى ، وذلك فقد ملأت البورجوازية الساحة بمفاهيم عن القومية غير انسانية. انها عنصرت القومية وحولتها الى لغة التمايز والسيطرة والاذلال، ولكن حلول العهد الاشتراكي قد فضح العنصرية البورجوازية ووضع مفاهيم عادلة عن العلاقات بين الامم . غير ان البورجوازية في العالم لم تستنفذ قواها . بل واصلت تشويه المفاهيم ، وعرضت بضاعتها في جانبين : الجانب الكوزموبوليتاني ، وهو الجانب اللاوطني الذي ينكر وجود الوطن والامة . ويعتمد على قاعدة اقتصادية استعمارية جديدة في اعادة تقسيم العالم كمناطق نفوذ . وفي تعميم السيادة الاحتكارية الرأسمالية على النطاق العالمي التي لا تعترف الا بوطن واحد هو وطن استثماراتها ومستغلاتها

اما الجانب الثاني فهو جانب التعصب واظهار دور الامة ـ تحت قيادة البورجوازية ـ كأنها فوق الجميع وقد اندفعت في هذا الجانب بتوتر ومحمومية البورجوازية الصغيرة المرباة في حقل الرأسمالية ، حقل العداء للاشتراكية العلمية وللفكر الثوري والعلاقات الانسانية المتكافئة .

والنازية والفاشية الايطالية وحلفاؤهما اقدموا على أخطر مؤامرة ضد البشرية بنسفهم جوهر الصلات الانسانية بين الامم وباشعالهم حربا عنصرية ارهابية واسعة النطاق لافناء الامم الاخرى او اخضاعها .

وقد اخطأت قوى يسارية معينة في تفسير الظاهرة العنصرية وأقدمت على صنع تحليلات غير علمية . ونظرت الى القضية القومية من زاوية ضيقة ، هي زاوية رد الفعل ضد الفهم البورجوازي للقومية . وبدل التوصل الى فهم اشتراكي ثوري للمسألة القومية فقد آثرت الاستعجال باستهجان المسألة القومية بأكملها وذلك بالحاقها بالبورجوازية ، مما يحمل معه موت المسألة القومية بموت البورجوازية .

لقد كان التخريج النظري الضروري والملح هو ان مـــوت البورجوازية هو وحده الذي يعطي للقضيـــة القومية حياتها . فالبورجوازية لم تكتف بضرب الامم واضطهادهـــا بل انها عملت ايضا على التدخل في دفاع الامم ضد الاضطهاد البورجوازي وذلك بتشويه وسائل الدفاع . فحيث لا يقوى على دحر الاضطهـــاد القومي (البورجوازي) الا السلاح القومي الثوري ، فقد صاغت البورجوازية سلاحا لا يدحر الاضطهاد بل يعززه ويضمنه وهــو سلاح التشويه البورجوازي لمفهوم القومية .

ان انسياق بعض فصائل اليسار لفهم القوميـــــة كأرث بورجوازي ، وطدته ردود الفعل ضد النازية والفاشية العنصرية وحربهما القذرة المعلنة ضد البشرية .

لكن حزب البعث العربي الاشتراكي لم يقع في محطة ردود الفعل فهو لم يقع في انحراف اللاقومية تعبيرا عن موقف الرفض للقومية الفاشية «القومية الشكلية اصلا» . ولم يقع في انحراف التطرف العصبي القومي «وهو قومي شكلا ايضا» تعبيرا عـــن موقف الاحتجاج على اللاقومية . لقد فهم الحزب المسألة القومية فهما محددا .

اولا ـ القومية كتعبير عن معنى الامة العربية في تاريخهـــا وتطورها الحضاري ، في اصول وجودها الاساسيـــة (الارض ، اللغة ، التاريخ ، التكوين النفسي المشترك والتراث ، المســيرة الاقتصادية ..) .

ثانيا ـ المسألة القومية كمسألة انسانية تستكمل مسائل الامم وتتكافأ معها دون ان تتعارض مع اي منها

ثالثا ـ المسألة القومية تعنى بجماهير الامة وهــي بذلك لا تنطلق من غيبة التحليل والموقف . بل ترتكز علــى حقيقة ان لا وجود للأمة بدون جماهير الامة . وجماهير الامة هم الذين يشكلون الامة . فهي ـــاي الامةـ لهم . وبذلك فكل البرامج والمخططـات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية هي من اجل صالح

جماهير الامة . وعلى هذا الاساس فالمسألة ذات محتوى كبير هو محتوى تحقيق مصالح الجماهير الكادحة . وتدخل الاشتراكية مضمونا وقوة فعلية عصرية للمسألة القومية ، وهذا وحده الكفيل بمنع العوالق الانعزالية والمتطرفة التي تلحق بالمسألة القومية بدون الاشتراكية .

ان ادراك الحزب للمسألة القومية ادراكا صحيحا ، متينا واعيا ، ابان تعارضات واجتهادات متضاربة كثيرة ، قد أوجد للحزب دوره الرائد في المسألة القومية . ونضال الحزب من اجل الوحدة ، هذا النضال الموجه العنيد هو نفس التطبيق العملي لابراز الحزب في شعاره الأساسي ، (الوحدة) قبل سواها .

من الثورة الديمقراطية البورجوازية الى الثورة الاشتراكية

ان الفهم التقليدي الميكانيكي للتحولات الاجتماعية في الثورة، قد أثر بشكل كبير على زخم التوجه اليساري . فالفهم الخاطىء وغير العملي هو فهم يشل الحركة اليسارية وينقل الثورة الى اليمين تدريجيا . وفي عصر الاشتراكية وثورات التحرر القومي والوطني اكدت التجارب الثورية امكانية التحرر من الاستعمار في ثورة وطنية متحولة الى ثورة ديمقراطية تصفي العلاقات الاقطاعية وتطلق للجماهير الكادحة طاقاتها الكامنة . وهذه الثورة الوطنية الديمقراطية ليس شرطا ان تقودها البورجوازية الوطنية . بل ان التجارب اكدت عدم احتمال توفر امكانية قيادية للبورجوازية الوطنية في العصر الحالي . وان الطبقات الكادحة قادرة بفعل ادواتها السياسية الثورية على انجاز المهام الموكولة بالبرجوازية تاريخيا ــ على نطاق اوروبا مثلا ــ وقادرة على تحويل الثورة الديمقراطية الى ثورة اشتراكية . وفي بلدان العالم الثالث ، لا يمكن اعتبار مثل هذا التحويل مجرد احتمال وارد ، بل هو ضرورة واقعية تمليها ظروف الهجوم الاستعماري والعنصري

الفاشي ، وكذلك ظروف التخلف الكبير الذي تعيشه البلـــدان فطفيلية البورجوازية واعتمادها على الرأس المال الاجنبي بشكل كبير ، وصغر دور البورجوازية الوطني وتذبذبـــه) لا يمكن أن يفرض على الثورة التأخر ووضع الوصاية البورجوازية على العمال والفلاحين ان الثورة ضد الواقع وفي الواقع نفسه ، وبأدواته مما يعني ان العمال والفلاحين وطلائعهما الطبقية السياسية هم الذين يبادرون لانجاز المهام الثورية انجازا مكثفا ديناميكيا .

ان حزب البعث لم يقع في الاخطاء التنظيرية التي وقعت فيها فصائل يسارية عديدة . بل انه وعى ظروف الواقع العربي جيدا وربط بين المسألة القومية والقضية الاشتراكية ربطا اساسيا . وبذلك افاد الثورة القومية بأن عين لها ركائزها ومناطق تحركها .

فالطبقات الكادحة هي قائدة الثورة القومية ، والحلفاء في عملية الثورة اما ان يكونوا حلفاء مهمين لهم دورهم الخاص وبالتالي يكون التعامل معهم بمنطق خاص ، او ان يكونوا حلفاء عابرين .

حزب البعث هو حزب الثورة الواقعية

لما كانت التحليلات والشعارات لا تعني شيئا بدون التطبيق ، فان حزب البعث في نضاله الوحدوي قد قدم القرائن الكاملة على انه حزب الوحدة القومية ، هذه الوحدة التي لا يمكن لها ان تكون فارغة من الجوهر المادي ، الاجتماعي . ولذلك فالمنجزات الثورية التقدمية هي حجر الاساس في جدية المنطلقات النظرية والتغيرات المادية التي هي قاعدة النظام الثوري وبرهانه الوحيد .

وباستلام حزب البعث السلطة أقدم على مبادرات هامة تؤكد منهجه . فهو في الحقل الاقتصادي تبنى سياسة زراعية ثورية جذرية وذلك بانهاء العلاقات الاقطاعية وبتمليك الفلاحين الارض ومكننة الزراعة والسير في طريق الاستثمارات الزراعية الجماعية، وفي اعطاء الفلاحين حرية التنظيم والمراقبة والاشتراك فـــي

المجالس الحكومية كقوى كبيرة ذات مصلحة اولى في نجاح السياسة الزراعية .

كما أقدم الحزب على تطبيق سياسة تعدينية وطنية ، واستثمار الكبريت والبترول استثمارا وطنيا بالتعاون مع البلدان الاشتراكية ، وقد خطط الحزب الاقتصاد بتوجيهه نحو تشجيع القطاع العام في الصناعة والتجارة ، مع رعاية القطاع الخاص ضمن الخط العام لسياسة الدولة في التنمية الوطنية للاقتصاد. كما في السياسة الداخلية فقد اتجه الى حل المسألة الكردية حلا ديمقراطيا مبنيا على الاعتراف الكامل بالحقوق القومية للاكراد ، وتحقيق هذا الاعتراف في اجراءات عملية جذرية مهمة على عدة اصعدة. ويعتبر حل القضية الكردية تدعيما للجبهة الوطنية الداخلية وترسيخا لها وذلك لانه في جوهره اتحاد جماهيري كبير بين العرب والاكراد اضافة الى انه لقاء جبهوي بين حزبين قوميين ، حزب البعث العربي الاشتراكي والحزب الديمقراطي الكردستاني، يستوعب القوى الوطنية الاخرى المستعدة للعمل ضمن اطار الجبهة .

ومن الممكن القول ان سياسة الحزب في محاربة الاستعمار وتصفية شبكاته الجاسوسية ، ودحر مخططاته التآمرية ، التي تتضمن ايضا الوقوف الى جانب معسكر القوى الثورية في العالم، هي ابلغ تعبير عن نهج حزب البعث الثوري .

ان هذه المنجزات ، مع عديد من المنجزات الاخرى ، توضح الطريق الثوري الذي يتقدم فيه الحزب باصرار ، كحزب للثورة الواقعية الدائمة .